

## الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

### وزارة الثقافة

شريعة ← طريقة ← حقيقة

### EXOTERISME → MESOTERISME → ESOTERISME

تستوجب الأسباب المحفزة على الطبعة الرابعة للملتقى الدولي " تصوف - ثقافة - موسيقى " مسوغاتها في الحاجة العاجلة و الشرعية التي يشعر بها الباحثون المتفرغون للدراسات الصوفية إلى ضرورة الاستثمار الأمثل لحقل اختصاصهم و وجوب إعادة صياغة مقاربتهم التي يظهر و كأنها تعجز، لدى احتكاكها مع بعض الاختصاصات، عن الاختراق الفعال لظاهرة تفلت عناصرها من سطحية الأدوات الزهيدة و المتجاوزة التي بوسع علم الاجتماع التطبيقي توفيرها لنا. دون أن ننسى مخاطر التهور و ربما التوجيه الإيديولوجي التي هي من صميم بعض ممارسات العلوم السياسية التي قد تكون اعتباطية و إن هي اتسمت بالبراءة و التي قد نعرض لها موضوع بحثنا من غير إرادة و لكن بكل خطورة. شعورا منا برهانات البحث العلمي نلتزم بأن تكون الطبعة المقبلة قفزة نوعية على الطريق القابل للإتقان و الفائق للإشتراط للعلوم الإنسانية على وجه العموم و لعلم الأنثروبولوجيا على وجه الخصوص ما من شأنه أن يغرس بثبات و استمرار منطق الموضوعية، يشخص قواعد الاستعراض و يرسم حدود التعدد الاختصاصي مثلما يقره الاستحقاق الأكاديمي للمركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ و يقتضيه واجب النقد الذاتي.

يتهيكل قالب العمل المرتقب لملتقانا حول ثلاثة محاور أسوة بمدارج التلقين الصوفي في الإسلام الذي يجتاز سلما عموديا تنازلي الاستقامة طبقا لمعيار قوة القصور الذاتي الذي يستند إليه قانون الحركة. يخترق هذا المسار ثلاثة مستويات للفهم، يستغرق ثلاثة أزمنة من الوقت و يقيم بثلاث مواضع مرتبطة بمواقع اللطائف الثلاث : العقل، النفس و الروح. بينما و على عكس العلوم النقلية فإن التصوف علم لدني من غير الممكن تحصيله اللهم سوى عن طريق الأحوال و الفيوضات المنبثقة عن حضرة اللاهوت و بتعبئة طاقة الالتقاط الكامنة في عالم الناسوت. ما يؤدي بالمريد المبتدئ بالشروع في الاستيعاب الحرفي أي الأساسي لنصوص و قوانين الشريعة حتى يتمكن هذا الأخير من استشفاف روح التنظيمات الإلهية بفضل التجربة الكشفية المباشرة لهذا الفن الرباني الذي ينسبك في الترويض الصارم للأعضاء، للحواس و للمشاعر بالمواظبة على ممارسة الذكر و مجاهدة أهواء النفس و أوهام العقل في إطار آداب الطريق إلى أن يتمكن من بلوغ مرتبة التأهيل الاستنباطي المحكم و الحدسي للحقيقة التي هي ثمرة التأويل. عندئذ يصير السالك قادرا على فك مقاصد الشريعة مزودا في فهمه بالاندفاعات الإلهامية إلى أن يصير جاهزا لمقايسة المفعول النفسي للظاهرة البصرية الوارد ذكرها في القرآن الكريم : " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَّرَّ السَّحَابِ " (سورة النمل - آية ٨٨) ينتظم هذا المسار الكمالي حسب الترتيب الآتي :

الدرجة الأولى هي درجة الشريعة المقابلة لمقام الإسلام و هي منساقاة لقابلية الإدراك العقلي. يتمثل مقصدها الأولى في تزويد المريد بالتحيز الدينية التي هي بمثابة الأداة التعليمية التي لا مناص له منها و التي على ضوءها يتدرب على حفظ الأوامر و النواهي في حدود الفطرة و الاعتدال و التي من شأنها أن تمكنه من الترقى التدريجي لغاية تحقيق الانقلاب الشامل في ذاته و نفسه بفعل الاستبطن الحيوي لمعاني النصوص المقدسة و الوصول في نهاية المطاف إلى مقام الكشف و الإشراف.

الدرجة الثانية هي درجة البرزخ الفاصل المرموز له بقناة الارتباط أو الطريقة المقابلة لمقام الإيمان. وظيفتها تكمن في تزويد المريد العازم على السير إلى الهوية بإمكانية تمحيصه وجدانيا ما أدركه عقليا خلال دور الشريعة و مده بالتالي بركيزة استطلاعية لترقيه الروحي. يتعلق الأمر هنا بقابلية الإدراك الذوقي.

الدرجة الثالثة هي درجة الحقيقة الموافقة لقابلية الإدراك الكشفي و المقابلة لمقام الإحسان. تتيح للصوفي، الذي بلغ مقام الاستعداد للرجوع عن الباطل و الإقبال على الحق، ملكة المغادرة لحالة السكر الوجودي و التملل العقيم يعني ترك ما يعرف بمقام التلويح إلى مقام التمكين بمأمولية العودة النهائية إلى حالة التوازن التام المشار إليه في القرآن الكريم بالصراط المستقيم التي تتيح للإنسان القدرة على الوقوف بثبات في حالة من القيمومة الأبدية.

يفترض أننا نستقبل بترحاب كافة مواضيع البحث و التدقيق التي من شأنها توفير التأطير الفكري العام لكل محور من المحاور الثلاثة مع إعطاء الأسبقية لتلك التي تتيح استقصاء أدق لإشكالياتنا التي تختزل في تساؤل جوهرى يستقصي المعنى الأنثروبولوجي للعزم الصوفي. بيد أننا نود التركيز أساسا على وقع سير السلوك على الفرد كما على الكون، في الحاضر و الماضي، و ذلك من خلال اجتياح الثلاثية سابقة الذكر "شريعة - طريقة - حقيقة" المشكلة لهذه التركيبة الحيوية مع محاولة استخلاص كفايات العمل، آليات الانتقال و شروط اجتياز مختلف الحقب المرحلية التي يتطلبها التدرج الصوفي و كذا استنتاج الوسائل، المناهج و المفاهيم الكفيلة بتحليل هذه الظاهرة.

شاء الحظ أن تتعد طبعنا القادمة في غضون ٩، ١٠ و ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ بمحروسة الجزائر، المدينة المعلنة هذا العام "عاصمة للثقافة العربية". من زمان تعد الجزائر، قبة الإسلام و حورية البحر الأبيض المتوسط، قلعة الصوفية و بستان الأولياء. تحظى هذه اللبوة، المحدقة في البحر بأعين من لهب دون أن يرمش لها جفن، بالحماية الأبدية لوليها الصالح سيدي عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (٧٨٦-٨٧٥) المنحدر من سلالة شهيد الإيمان جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار، بن عم النبي و الشقيق الأكبر للإمام علي. يذكر أن الجد الهاشمي الذي ينحدر منه حامي الجزائر كان أول سفير للإسلام إلى نجاشي الحبشة الموحد أشرمه بن أبجر. الروايات تلقبه بذي الجناحين كناية عن قطع يديه و استبدالهما له من الله بجناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء. جرت، كما هو معلوم، أحداث هذه الواقعة خلال غزوة

يجسد السليل الجزائري لبطل الإسلام هذا، الملقب بغريد الجنة و صقر بني طالب، بحق الإنسان الكامل مثلث الأبعاد، من قد اجتاز مراحل التأهيل الصوفي الثلاث ما دام قد قام بوظيفة الإرشاد الروحي لعموم سكان المحروسة فضلا عن تلقينه قواعد الحكمة الإلهية، النظرية منها و التطبيقية، لأعداد معتبرة من عيال الجزائر من الجنسين. كما أنه ولى قضاء المدينة، على غير رضا منه قبل أن يخلع نفسه، مثلما قام بتحرير أكثر من ٩٠ مؤلفا في الشريعة و الحقيقة، و التي من ضمنها الجواهر الحسان في تفسير القرآن، بين في معظمها، لعلماء الظاهر من فقهاء المالكية، أن التصوف ينبني على كتاب الله و سنة رسول الله، مستدلا بذلك على الأصول الإسلامية لهذا الإرث المحمدي.

و كأن القبة الثمانية الأضلاع، التي رفعها الداوي حاج أحمد سنة ١١٠٨ هجري (١٦٩٦ مسيحي) فوق ضريح قهرمان الجزائر و التي يعلوها سنجق الولاية الموشى بالهلال و النجمة، ترمز إلى شرائط التصوف الثمانية . كذلك يتبع يوغية الهند و اليابان نظاما تأمليا مكونا من ثماني قواعد أساسية قصد تحقيق الانعتاق و الوصول إلى مقام اليقظة . بدوره يوصي القديس سمعان (٩٤٩-١٠٢٢) المبتدئين من بين المسيحيين المقبلين على سلوك نهج السكينة بتطبيق ثماني شعائر تأملية . أليس في هذا مثلا شاهدا بحسبان على المصير المشترك للمسالك الروحية الكونية ؟

انطلاقا من روضته الخضراء، المعبقة بأريج المسك العربي و المرشوشة بالحناء، الواقعة في أعالي الربوة المطلية على فنار البحرية في قلب القصبة التي لا تقهر، لا زالت نبرات الصوت العذب الودود لحارس جزائر بني مزغنة يتردد في أفئدة جميع العاصميين أكانوا من السكان الأصليين أو من الوافدين ما دام الواصلون الجدد مؤهلين لفك رموز المعنى و الاقتداء بأداب الحضرة. كما توصينا الذبذبات الأمانة لهذا الصوت الملائكي الذي يرتج له إلى اليوم هذا المقام العالي المكرس للعبادة و السكينة بالامتناع عن توريث الأحقاد و لتبلغنا أن حبل القربى لا ينبغي أن يقطع و أن الكراهية لا يمكنها أن تشفى بالكراهية و إنما بالمحبة و التسامح. حتى أن الغريب، عابر السبيل، الأرملة، اليتيم، المحتاج، المضطهد، المريض، المعتوه، المنبوذ، المشرد، بل و حتى المطارذ و الهارب من القانون و كل من لم يجد لنفسه ركنا يأويه كان بإمكانه أن يلجأ إلى قدس أقداس التصوف العاصمي هربا من جحيم البشر و استئناسا بالبركة الصادرة عنه. يكفي أن ينطق قاصد المقام الشريف، لدى مثوله أمام الباب العالي، بعبارة " شرع الله ! " هي ذي إحدى المرموزات المعضلة التي تقترح الجزائر، المدينة المجنوبة - المستورة بكبرياء في حرائر حايك نورها الأبيض و المكحلة عيونها بإثمد العرفان الأدعج و المكلفة بخيط روحها العسجدي - إحياءها بخصوص عدد أبواب الجنة الثمانية و عدد أبواب النار السبعة حسب القرآن الكريم. عسى أن يكون الباب الثامن ذاك الذي " بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ " (سورة الحديد - آية ١٣) ؟

وجه آخر من أكرم وجوه التصوف ينير سماء البهجة العتيقة التي تحظى باحتضان أحد الضريحين الشريفين المنسوبين لمجدد السجادة الخلوتية و سلطان الطريقة الرحمانية، الجامع بين الشريعة و الحقيقة، المرابط سيدي محمد بن عبد الرحمن القشطولي الزواوي الأزهري ١٧١٥ / ١٧٩٣ المدعو بحمر اللحية بو قبرين بسبب الكرامة التي يروى أنها وقعت له عقب وفاته و التي أدت إلى تضاعفه إلى جثمانين. هو ذا سعد أزهر للاحتفاء معا بذكرى من قد أرسى قواعد أفلح الطرق و أدقها انتظاما من بين الأربعين طريقة صوفية التي تحتسبها الجزائر. من قد رسخ قواعد الخلوة، انطلقا من مسقط رأسه بالقبائل قبل أن ينزل به المقام إلى العاصمة المحروسة ، جاعلا من هذه الشعيرة المحمدية شرطا مسبقا لبلوغ الفتح الأكبر. نصبو لأن يكون هذا الموعد التاريخي محفلا جامعا لكافة فروع هذه الطريقة الجليلة القدر، المتواجدة عبر كامل أرض الإسلام و الموصولة جغرافيا من آسيا الوسطى إلى إفريقيا الشمالية.

مرحبا بكم في الجزائر، عاصمة التصوف.

د. زعيم خنشلاوي

المنسق العلمي للملتقى